الفكر الإقفالي، وإقفال الفكر

عبد الله المقبالي

الولوج إلى عالم النظرية الغربية، أمر بالغ التعقيد، ولا يخلو من مطبّات، وقد أغرى هذا الحقل كثيراً من مفكري العالم الإسلامي لا سيما أنّ كثيراً منهم اقتنع بالقطيعة الابتسمولوجية التي نادى بها غاستون باشلار، بل كانوا من دعاة التواصلية أو الاستمرارية حيث إن الفكر العلمي الحاضر استمرار لما سبقه، والعلمي استمرار وتطور للعملي. مصطفى لا في الحرازين كتب مقالاً في مجلة التسامح أسماه (التقييد والتقعيد في الأنظمة والمناهج)، طاف بنا من خلال الإشكال السابق إلى الحديث عن الفكر الإقفالي، وآلية قفل الفكر، مشيرًا إلى حزمة من الأنساق الفكرية واللغوية التي تتحكم في بناء ما أسماه بالفكر المحلي الإقفالي. مقال الحرازين عميق البنية، ويحمل في طياته طلائع التبشير بقطيعة باشلار الابتسمولوجية، لكن جمله الطويلة جداً أثارت بعض الإشكال في إيصال المعلومة. ربما تمر على القارئ فقرة كاملة للحرازين هي جملة واحدة، لا يستطيع المتلقي خلالها التقاط أنفاسه، ناهيك عن التقاط الفكرة.

يبدأ الكاتب مقاله بتساؤل عن سبب قيام الفكر المحلي بمزج النظام اللغوي بعناصر من نظام آخر؟ مشيرا إلى أن الإجابة التي يقدمها رواد هذا (الفكر المحلي الحديث) غير مقنعة، وأن السبب وراء عملية المزج هذه هي محاولة للتقريب بين الحداثة والإسلام باستخدام صيغ قولية وإشارية تنتمي إلى المخزون اللغوي الحديث. لذا فالكاتب يقترح استخدام مبدأ (بول فايربند، المسمى بمبدأ عدم المقايسة)، أي عدم إمكانية العبور بين النظم التي تستخدم منطوقات متشابهة لغياب الأصل الموحد بينها. لكن الحرازين ينتبه إلى عدم قدرة مبدأ عدم المقايسة على الإقناع إلا بتفكيك نظامي الإسلام والحداثة معا، وترسيخ هذا المبدأ بإلقاء الضوء عليه. إن ترسيخ مبدأ عدم المقايسة في نظر الكاتب، يكون بالاستفادة من دعوة فايربند المنهجية، حينها سيُفتح حقل تفكري دأب المحلي على إقفاله.

لإيضاح كيفية تحول الفكر المحلي إلى فكر إقفالي، يسوق الكاتب النص التالي لعبدالله العروي من كتابه مفهوم العقل: «لا مناص لنا من قبول التمييز والإقرار أن العقل عقلان: أحدهما يهمّ الفكر وحده، ومهما كانت المادة المعقولة، هدفه النظر في شروط التماسك والاتساق، والثاني يهمّ السلوك أو الفكرة المجسدة في فعل هدفه النظر في ظروف مطابقة الوسائل للأهداف المرسومة أياً كانت. الأول عقل المطلق، عقل الكائنات المجردة، عقل الحدود والأسماء، عقل النطق والكون، والثاني عقل الواقعات، أفعال البشر المتجددة. يوجد فرق جوهري بين من يميّز ومن لا يميّز بين هذه المفهومين، بل هنا تحلّ القطيعة الجوهرية بين القديم والحديث». يرى الحرازين في النص السابق فرصة للاطلاع على آلية تحول الفكر المحلي إلى فكر إقفالي، حيث إن تبدلا شاملا أصاب مفردات القول ووحدات الفعل من نقطة مفاجئة عبر فكر الحداثة، جعلت نص العروي يقترب من اللامعنى وفقدان الدلالة كلما أجهد نفسه لتثبيت حجته. ويستشفع الحزارين برأي غلنر القائل: «ولكن حين ينفكّ الإكراه عن القناعات الفردية ولا يرتبط إلاّ بالنظم المحكمة وقواعد التفكير النظامية واندراجها في متكوّنات من العناصر الملتحمة، يبزغ أمامنا إمكان حديث: اجتماع هو بمثابة نظام تعاقدي، أو طبيعة تبنى على ما هو بديهي وعلى توقّع ما هو تناظري وعلى اجتماعٍ حيث المفاهيم متواطئة والبشر سواسية». يشير غلنر إلى نقطة بالغة الأهميّة بحسب الحزارين، فالنص يفجر فكرة الحديث، حيث يعزي نجاح «التقعيد» في الغرب إلى التمييز بين ثقافتي الإرادة والشطارة. ولم أعِ جيدا هنا ما أراد الحرازين إيصاله، فقد دخل في دوامة

طويلة من الجمل المتسلسلة، غير المنتهية، أو ما يشبه العبارات غير المكتملة، مستخدماً اشتقاقات متعالية على اللغة لتأسيس لغة فلسفية افتراضية غير حقيقية. لكن مجمل ما توصلت إليه من خلال ما سرده أنه ناقم على عبدالله العروي وقد أعاد الحديث عنه مجددا قائلا: «ونكتفي هنا بما أحدثه النص الغلنري بما هو وحدات طاقة استراتيجية قولية وفعلية لا تنفصل عن متحركيات الممانعة والمناجزة والإحباط والتعطيل لآليات الإقفال التي تكوّنت وانشحذت وتراكمت في المخزون الفكري المحلي والتي تجد في خطاب عبد الله العروي نموذجاً بارزاً لها». إن الحرازين في مقاله يرى مشكل الفكر الإقفالي هو النظر إلى الغرب بما ليس فيه، فيطرح على القارئ سؤالا سيسعى هو نفسه للإجابة عنه، لماذا نعتبر هذا الفكر إقفاليا؟ وهو هنا يشير إلى ما بدأ به في مقاله عن محاولة «البعض» الحديث عن الإسلام بلغة الحداثة دون المرور بالنواة، وهو المخزون اللغوي القرآني، حسب رأيه. ثم يذكر ما أورده فرانسوا ليوتار عن «تحوّل لغة التقعيد في الغرب عن نواة التنظيم الأسطوري، حيث التماسك يتم بالتأصيل، أي الرجوع إلى أصل لتظهر كهدف قابل للاختيار الحر». وهو هنا إذ يشير صراحةً إلى تشكل خطاب سلطوي يمارس الإقفال على حقلي الأقوال والأفعال، يود أن ينبه إلى غياب التسلسل المنطقي، فيقول: «وبالفعل لا يمكننا الاستناد إلى ما يقوله ليوتار في هذا النص الذي يبدو وكأنه يأخذنا بعيداً عن هدفنا إلا إذا تبصّرنا بالفصل الذي يقيمه بين الجمل بمعيار التمييز بين ما لا يتحقق إلا بعد تأصيله برده إلى مرتبة الآليات اللغوية بما هي دورة تراتب المبادئ والمضامين التي يتحصل منها هذا التأصيل وبين ما يتحقق بذاته خارج كل تأصيل. وتبعاً لذلك فإن ما يكسبه الاستنباط من تشاكله هذا يخسره عندما نقرأه انطلاقاً من هذا الفصل حيث التغاير والتباين يحل مكان التشاكل والتلاؤم». وهو يرى هنا أن الآليات اللغوية لا تعتبر خالية من الفعّالية لأنها غير مألوفة كما توحي بذلك الكتابة المحلية، بل لأنها مزدوجة الشحنة الدلالية. وهذا الازدواج يولد دوامة مفرغة من الأسئلة أشبه ما تكون بالجدل البيزنطي. وهنا ينتج الفكر الإقفالي. وعليه، لا يكون المشكل في الفكر فهو غير مقفل في ذاته، ولكن في الآلية المتبعة التي تولد نسقا إقفاليا. وفي الختام أود التنويه إلى أهمية هذا المقال، باعتباره مبصرا بإحدى مشاكل المنهج، رغم ما يحويه من تعقيدات لا تفقده قيمته.

abdullah-maqbali@hotmail.com